مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 2 السنة: 2021
ص: 641 - 656 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الاتجاه التاريخي في النقد الجزائري

قراءة في كتاب أشعار جزائرية لأبي القاسم سعد الله

The historical approach in Algerian criticism Reading in the book of "Algerian Poems" by Abu Al-Qassim Saad Allah

[*] أ.د.حبيب بوزوادة

Pr. HABIB Bouzouada

مخبر اللسانيات العربية وتحليل النصوص، جامعة معسكر (الجزائر)

Mascara university (Algeria)

Arabic Linguistics Laboratory and Text Analysis

habibbouzouada@gmail.com

تاريخ الإرسال:2020/11/05	تاريخ القبول:2021/04/26	تاريخ النشر: 2021/06/02

ملخص البحث

يصنّف أبو القاسم سعد الله في أوساط الأكاديميين والمهتمين بالشأن الثقافي بأنّه مؤرّخ، ويصفونه بشيخ المؤرّخين، ولكنّه إلى جانب الاهتمام بالكتابة التاريخية التوثيقية كان شاعراً، مهتماً بالشأن الأدبي، وبالتاريخ الثقافي للجزائر، وهو ما انعكس في كتاباته، التي ينحاز فيها إلى صف الثقافة والأدب، حيث يبدي رأيه في الكثير من قضايا الإبداع، وأشكال الكتابة، وجعل التعريف بالمفكرين والعلماء والمثقفين ركناً ركيناً في كتابته، وهو ما حفّزني على تسليط الضوء على منهجه في التعامل مع قضايا الإبداع الأدبي، انطلاقاً من كتابه أشعار جزائرية.

الكلمات المفتاح : تاريخ؛ نقد؛ نقد تاريخي؛ سعد الله؛ مناهج نقدية

Abstract :

Abu Al-Qasim Saad Allah is classified as an historian expert by academics and those interested in cultural issues, who considered him the "Chairman of Historians" (Sheikh). However Saad Allah, in addition to his interest in historical documentary works, was also a poet, concerned with literary and the cultural history of Algeria. That appears in his writings, in which he biased to culture and literature, as he expresses his points of view on many issues of literary, forms of writing, as well as dealing with defining thinkers,

[*] حبيب بوزوادة habibbouzouada@gmail.com

scholars and intellectuals as a crucial part in his writings, such issue has motivated me to shed light on his approach in dealing with different issues of literary creations, depending on his book Algerian poems.
Keywords: history, criticism, historical criticism, Saad Allah, critical approaches

تقديم:

يعتبر المؤرّخ أبو القاسم سعد الله واحداً من أهم الأسماء العلمية والثقافية والنقدية في تاريخ الجزائر المعاصر، فقد كانت لهذا الأكاديمي المتخصص في التاريخ؛ ذي الميول الأدبية جهودٌ كبيرة في تحقيق التراث الجزائري، والتعريف بأعلامه، وآدابه، في مزجٍ عجيب بين روحية الأديب، ودقة المؤرّخ، التي أنتجت مقاربة تاريخية للنصوص الأدبية، تنشد الحقيقة، وتهدف إلى تمحيص تلك الآثار وصولاً إلى الصورة الأكثر دقّة وواقعية عنها وعن مبدعيها وظروف إبداعها.

إنّ الخطاب الأدبي من وجهة نظر أبي القاسم سعد الله ليس تعبيراً فنياً جمالياً ذاتياً فحسب، ولكنّه بنية وثائقية تحمل دلالات الزمان والمكان والأشخاص والبيئة، على اعتبار أنّ الأدب مرآة عاكسة للتحوّلات الحاصلة في المجتمع، وهو ما يؤهله ليكون وثيقة تاريخية، أو قرينة استرشادية للباحثين في التاريخ. غير أنّ الخلفية الأدبية لأبي القاسم سعد الله، وتجاربه الأدبية الأولى، سمحا له بانتهاج مقاربة يمتزج فيها ما هو أدبي بما هو تاريخي، مثلما يلاحظ ذلك في مؤلفاته الكثيرة مثل تاريخ الجزائر الثقافي، وتجارب في الأدب والرحلة، وسائر المخطوطات التي قام بتحقيقها.

المطلب الأول: أبو القاسم سعد الله بين الأدب والتاريخ

ولد أبو القاسم سعد الله سنة 1930م في بلدة (قمار) الصحراوية بولاية الوادي، لأسرة فقيرة تعمل في مجال الزراعة، حفظ القرآن الكريم في صباه، والتحق بجامع الزيتونة في تونس سنة (1947)، حيث حصل على شهادة الأهلية (1951)، ثمّ شهادة التحصيل (1954)، وفي تونس بدأ نشاطه الأدبي كاتباً في (البصائر) الجزائرية، و(النهضة) و(الأسبوع) التونسيتين، و(الآداب) اللبنانية، كما شارك في تأسيس (رابطة القلم الجديد) عام (1952) مع أدباء تونسيين.

عاد سعد الله إلى الجزائر مدرّساً سنة (1954)، ثمّ غادرها إلى مصر عبر تونس سنة (1955) منتسباً إلى جامعة القاهرة، وسجّل سنة (1960) رسالته لنيل شهادة الماجستير عن (الشاعر محمد العيد آل خليفة)، لكنه سرعان ما غادر في منحة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليحصل على ماجستير في التاريخ والعلوم السياسية من جامعة مينسوتا (1962)، وعلى الدكتوراه في التخصص نفسه عام (1965)، وقد عمل في أمريكا مدرّساً لتاريخ الحضارة الأوربية والشرق الأدنى وإفريقيا الحديثة بجامعة (ويسكنسن)، ثمّ عاد إلى الجزائر أستاذاً بجامعتها في قسم التاريخ، حيث قضى معظم حياته العلمية، إلى أن توفي في 14 ديسمبر 2013، تاركاً الكثير من البحوث والدّراسات ذات الصلة بالتاريخ والأدب[1].

واللافت في مسيرة أبي القاسم سعد الله العلمية أنّه بدأ أديباً، محبّا للشعر والنقد، بل كان أوّل من كتب شعر التفعيلة في الجزائر عندما نشر في جريدة البصائر سنة (1955) قصيدة طريقي، التي يقول فيها:

سوف تدري راهبات وادي عبقر
كيف عانقتُ شعاعَ المجد أحمر
وسكبت الخمر بين العالمين
خمرٌ وحبٌّ وانطلاقٌ ويقين
ومسحتُ أعين الفجر الوضيّه
وشَدَوْتُ لِنُسُورِ الوَطَنِيَّهْ
إنّ هذا هو ديني
فاتبعوني أو دعوني
في مروقي
فقد اخترت طريقي
يا رفيقي[2]

فقد بصم سعد الله بهذه القصيدة على ريادته الشعرية في الجزائر، وتفوّق على الكثير من معاصريه في بلاده مثلما يقول محمد ناصر: "إنّ الذي لا تتعدّد حوله الأقوال هو أنّ الشاعر الجزائريّ الوحيد الذي اتّجه إلى هذا الشعر عن وعي واقتدار، وحاول التجديد في الإشكالية

الموسيقية للقصيدة وفي بنيتها التعبيرية هو أبو القاسم سعد الله؛ في حين ظلّت محاولات الشعراء الآخرين من أمثال محمد الأخضر عبد القادر السائحي، والطاهر بوشوشي، والغوالمي، وأبو القاسم خمّار متّسمة بالتذبذب والتّردد"[3].

إنّ ريادة سعد الله الأدبية، وقوة عارضته الشعرية لم تشغلاه عن قضية الالتزام، ولم تمنعاه من الانخراط في قضايا الوطن وهموم النّاس، فقد كتب في مجلة الآداب اللبنانية "أَنْظِمُ الشعر ليكون رصاصاً يخترق صدر العدوّ، لا لوحةً فنية في دار الآثار"[4]، وقد كان هذا التصريح المبكّر إيذاناً بتحوّل سعد الله الثقافي والمعرفي، باتّجاه البحث الوطني، حيث لجأ –بعد ذلك– إلى الكتابة في تاريخ الجزائر، رغبة منه في التحرّر من الرؤية الاستعمارية لتاريخ الجزائر السياسي والثقافي والحضاري، وبهذا التحوّل خسرت الساحة الأدبية مبدعاً كبيراً، وشاعراً رائدا، فيما ربحت الجامعة الجزائرية مؤرّخاً فريدا، وباحثاً أكاديمياً مجتهداً. وقد عبّر أحمد يوسف عن هذا التحوّل بقوله " إنّ البحث الأكاديمي قد سرق الشاعر أبا القاسم سعد الله، ولم يتركه يواصل مسيرته الإبداعية، وكان يمكن أن يكون ثمرة طيّبة في التجربة الشعرية المعاصرة. إنّ أبا القاسم سعد الله كان مؤهلاً للدخول في غمار التجريب الشعريّ لكونه كان على صلة بالثورة الأدبية والشعرية التي كان يتابعها من خلال مجلة الآداب التي نشر فيها أغلب دراساته وبعض محاولاته الشعرية"[5].

إنّ تحوّل أبي القاسم سعد الله نحو الكتابة التاريخية لم يقطع صلته نهائياً بالأدب واللغة والثقافة، فقد جاءت موسوعته الأهم (تاريخ الجزائر الثقافي–10 أجزاء) حافلة بالنصوص الأدبية، وبالشخصيات الثقافية، تتضمن الكثير الكثير من المنجز الديني والفلسفي واللغوي والفني.. للجزائر عبر تاريخها الطويل. كما أسهم في تحقيق العديد من المخطوطات الأدبية على غرار رحلة ابن حمادوش، وأشعار جزائرية، وتاريخ العدواني، وحكاية العشاق في الحب والاشتياق، وغيرها، وهو ما وضعنا أمام حالة نقدية ثقافية يمتزج فيها التاريخ بالأدب، والعلم بالفن.

المطلب الثاني: نبذة عن المنهج التاريخي

يعتبر المنهج التاريخي أحد المناهج السياقية التي تتعامل مع النص انطلاقاً من شروط إنتاجه، وظروف كتابته، فهي قراءة تستفيد من المعطيات الخارج–نصية للولوج إلى داخل النص، من خلال استحضار أدوات التحليل التاريخي عند تناول الأثر الأدبي بالدراسة، يقول عمار زايد: "والمنهج التاريخي –كما هو معروف– يعتمد على مبدأ الشرح والتفسير، متعقباً تطوّر الظواهر

الأدبية من عصر إلى آخر، رابطاً الأحداث بالزمن، مقسّماً الأدب إلى عصور، واصفاً كلّ أدبٍ في إطار علاقته بالصفة الغالبة للعصر، وهو لا يكتفي بالنّظر في مؤلّفٍ واحدٍ من مؤلّفات الأديب، كما أنّه يعنى بشخصية هذا الأخير، وبتكوينه الثقافي، وبيئته السياسية والاجتماعية"[6].

لقد جاءت القراءة التاريخية للأدب في إطار التحوّلات الكبرى التي شهدتها المعرفة الإنسانية من خلال المحاولات الجسورة لعلمنتها، ومحاكاة وثبة العلوم التجريبية خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، من خلال الإيمان بتطوريّة الأدب، على غرار نظرية داروين في النشوء والارتقاء، يقول مونسي "فإذا كان في العلم نظريةُ تطوّرٍ فإنّه من غير المرفوض أن تكون هناك نظرية تطورية علمية تدرس الأدب في مراحله وحقبه وبيئته وجنسه"[7]، وهو ما تجسّد سنة 1901 في كتاب "منهج البحث في تاريخ الأدب" لغوستاف لانوسون (G.Lanson) الذي قرّر فيه "أنّ دراسة الأدب تبدأ بالتحريات ذات الطابع العلمي الواسع، والتي تشبه إلى حدٍ بعيد كيفيات البحث في الظواهر التاريخية، وهي تحريات تفصيلية؛ تتلخص في جمع المستندات، والطبعات المختلفة، والتحقّق من صحة نسبة النصوص، وقراءة الحواشي، ورصد التغيرات الرئيسية وفهم النص من خلال العلوم المساعدة كالصرف والنحو والعروض، ودراسة التأثيرات المتبادلة بين المؤلف وغيره، وبين النصوص، وتعدّ دراسة المناهل إحدى الوسائل الهامة للتغلغل إلى مختبر المؤلف للكشف عن كيفيات عمله وأصالته"[8].

إنّ دراسة لانسون للأدب ليست تطبيقاً حرفياً لمنهج المؤرخين، ولكنّه قراءة متميّزة لتاريخ الأدب، تؤمن بخصوصية العمل الفني، وتستوحي منهجها من هذه الخصوصية، وهو ما يؤكّده بقوله "ثمة فروق هامة بين المادة العادية للتاريخ بمعناه الدقيق ومادتنا، وعن تلك الفروق تنشأ فروق في المنهج. موضوع التاريخ هو الماضي، ماض لم تبق منه إلاّ أماراتٌ أو أنقاضٌ بواسطتها يعاد بعثه، وموضوعنا نحن هو الماضي ولكنه باق، فالأدب من الماضي ومن الحاضر معاً"[9]. وقد انتهى لانسون أخيراً إلى بناء القوانين الستة التي تحاور النص، وهي[10]:

أ-قانون تلاحم الأدب بالحياة، فالأدب مكمّلٌ للحياة.

ب-قانون التأثيرات الأجنبية.

ج-قانون تشكّل الأنواع الأدبية.

د-قانون تلاحم الأشكال لجمالية.

هـ-قانون ظهور الأعمال الخالدة.

و-قانون أثر المؤلّف في الجمهور، لأنّ المؤلّف قوةٌ منظمة.

إنّ دراسات لانسون ليست حدوداً نهائية للمنهج التاريخي، بحيث لا تزيد ولا تنقص، ولكن هناك محاولات أخرى للاستفادة من التاريخ في مجال الدراسات الأدبية والثقافية، حيث يرى ديفيد بُشْبِندر (D.Buchbinder) أنّ مناهج النقد الأدبي في موقفها من التاريخ تنقسم إلى قسمين؛ نظريات المحاكاة ونظريات السيميوطيقا، حيث تميل نظريات السيميوطيقا إلى تهميش التاريخ لتركيز الانتباه على أسئلةٍ حول معاني النص في علاقتها بأنظمة علاماته وديناميّاته، أمّا نظريات المحاكاة فتفترض أنّ النص يشير بدرجة تكبر أو تصغر، إلى أحداث أو أفكار أو شخصيات أو بنيات أو علاقات أو حقائق أخرى خارجة باعتبارها جزءاً من معناه[11]، وعلى الرغم من سطوة المناهج السيميوطيقية والنقد الجديد؛ إلاّ أنّها لم تتمكن من إزاحة التاريخ بوصفه إحدى أهم البنى المتحكّمة في صياغة الثقافة والفن والأدب.

وبحسب بشبندر فإنّ المقاربة التاريخية للأدب وللنص الأدبي؛ اتّخذت شكلين رئيسيين، وهما:

1-**المقاربة الجينية** (Genetic Approach) التي ترى أنّ النص الأدبي ينحدر من نصوصٍ سابقة عليه، فهو يرتبط بها بروابط موضوعاتية أو نوعية (thematic or generic links)، لذلك تركّز هذه الدراسة على العلاقة العائلية بين النصوص بصورة أكبر، فهي تبحث عن تأثير النصوص السّابقة في الكتابات اللاحقة، أو حتى عن تحوّلات الأسلوب في أحد النصوص، التي قد تكون مشتقة من نصٍّ آخر أو أكثر.

2-**المقاربة البيوغرافية** (Biographic Approach) التي ترى أنّ الكاتب يكتب عمله من خبرة رآها أو اكتسبها حتماً، ويُقرَأ العمل الأدبي -بالتالي- باعتباره وثيقة بيوغرافية. وقد قويت هذه المقاربة بنظرية التحليل النفسي الفرويدية التي تعتبر النص الأدبي نوعاً من الأحلام، يمكن النظر إليه باعتباره مفتاحاً لشخصية الكاتب وبنياته النفسية ومشاكله[12].

إنّ قراءة النص الأدبي في ضوء التاريخ كان أمراً مرفوضاً في ظل سطوة النظرية البنوية وتوهّجها، لكن النقد الأدبي سرعان ما عاد إلى التاريخ مقترحاً إعادة ترميم الصلة بينه وبين الأدب، "فكأنّ البنوية أعطت النقد الأدبي ما كان يجب أن تعطيه إياه؛ فلمّا لم تعد قادرة على

العطاء سكتت عن الكلام المباح، وتركت الفرصة للتاريخ الذي ظلّ ملازماً للأدب من حيث هو نتاج الرّجال، ومن حيث إنّ الذين كتبوه لا بدّ لهم من مجتمع يحيون فيه، ومن زمن يكتنفهم من جميع أقطارهم فلا يستطيعون المروق منه.."[13]

المطلب الثالث: ملامح النقد التاريخي عند أبي القاسم سعد الله

تمثّل الثقافة واحدة من أهم مرتكزات البحث التاريخي في مسيرة أبي القاسم سعد الله، فلا تكاد تغيب في أيّ مؤلّفٍ من مؤلّفاته، وقد تميّز عن غيره من المؤرّخين المسكونين –في العادة– برصد التحوّلات الأساسية في مسيرة الدول من الوجهة السياسية والقانونية والحربية، وبسيَر القادة العسكريين، وأبطال الحروب، والملوك والساسة وقادة الدول؛ فإنّ أبا القاسم سعد الله خصّص مساحة كبرى لتراجم المثقفين، وسير العلماء والفقهاء والفلاسفة والأدباء، ومنجزاتهم العلمية في تاريخ الجزائر.

ففي موسوعته الضخمة تاريخ الجزائر الثقافي وخصوصاً في الجزء الثاني منها؛ استعرض سعد الله مسيرة الأدب العربي في الجزائر شعراً ونثراً، عبر جمع النصوص، والاقتباس من المخطوطات، وضبط تواريخ ميلاد الأدباء ووفياتهم، مع تتبع أخبارهم وسيرهم، وعلاقتهم بالسلطلة والمجتمع.. في عملٍ توثيقي ببليوغرافي، لا يتهتم كثيراً بالمستوى الفني للنصوص، ولا بقيمتها الجمالية، لأنّ سعد الله كان يتعامل مع النصوص ومع الأدباء بعقلية المؤرّخ، الذي يهدف إلى تأكيد الحادثة التاريخية أو نفيها، ويعتبر الوصول إلى أيّ نصٍّ من النصوص الأدبية القديمة إنجازاً، والتعريفَ بأي أديبٍ –وإن كان مغموراً– نجاحاً، مثلما يقول: "وقبل كل شيء نذكر أنّ دواوين الشعراء الجزائريين ما تزال في طيّ الكتمان، ولا نعرف أنّ واحدا منها، ممّا يعود إلى العهد العثماني، قد جمع وحقّق، وما نشر عن المنداسي في الصدد لا ينقض هذا الرأي، فدواوين المنداسي وابن علي وابن عمار والمقري وابن حمادوش والمانجلاتي وابن سحنون وابن الشاهد وأضرابهم لم تنشر أو تعرف بعد، وكل ما نعرفه عن هذا الشاعر أو ذاك هو بعض الأبيات أو القصائد المثبتة عرضا في أحد المصادر التاريخية أو الفقهية أو المتفرقة في الوثائق العامة"[14].

ومع ذلك فقد كان سعد الله يخرج عن هذه القاعدة فيعطي رأيه أحيانا في المستوى الفني للنصوص التي يوردها، كتعليقه على مقامة أحمد البوني بالقول "ورغم أن البوني كان من العلماء الفقهاء فإنّ مقامته قد ظهر عليها الطابع الأدبي القويّ والعبارة المتينة، ولكنها تظل تفتقر إلى

عنصر الرمز والخيال البعيد"[15]، وتَعقَّبَ أبياتاً نقشت عند مدخل المدرسة الكتانية بقوله: "ومن الواضح أن هذا الشعر تسجيليّ وليس عاطفيا، وأنّ صاحبه قاله لينقش على جدارٍ لا لكي يتذوقه الناس ويحفظوه"[16].

كتاب أشعار جزائرية:

هو كتاب صغير الحجم يبلغ مائة وثلاثا وخمسين صفحة، يتضمّن قصائد شعرية ومقطوعات أدبية لأدباء جزائريين ينتمون إلى الفترة العثمانية، وهم محمد بن علي، وأحمد بن عمّار، ومحمد بن ميمون، ومحمد القوجيلي، ومحمد بن رأس العين، ومحمد سعيد الشباح، وأحمد المانجلاتي، جمعها في ديوان واحد المفتي محمد بن علي، واختصرها تلميذه أحمد بن عمار، وقد أخرج أبو القاسم سعد الله هذا الكتاب في ثلاثة أقسام:

1-قسم الدّراسة:

ويقع في اثنين وثلاثين (32) صفحة، تتضمّن ثلاثة عناصر، وهي (كلمة شكر واعتراف)، ثمّ (تنبيهات)، وتتضمّن أخيرا (تقديما) عرّف فيه سعد الله بمنهجه في التحقيق والدّراسة، وقدّم فيه معلومات أساسية عن الجزائر في العصر العثماني، وختم بتراجم موجزة عن الأدباء الواردة نصوصهم في الكتاب.

2-قسم التحقيق:

ويتألف من مائة وصفحتين (102)، تتضمّن نصوصاً أدبية شعرية ونثرية، للأدباء المذكورين، مذيّلة بتعليقات أبي القاسم سعد الله في هوامشها.

3-قسم الفهارس:

ويقع في إحدى عشرة (11) صفحة، تتضمن (فهرس الأسماء والأعلام)، و(فهرس الأماكن والبلدان)، و(فهرس الموضوعات).

ويمكننا تلمّس الرؤية النقدية لأبي القاسم سعد الله في القسم الأول من الكتاب، وفي بعض تعليقات القسم الثاني، التي يعبّر فيها عن منهج نقدي يسائل النص الأدبي بروحية المؤرّخ، وصرامة العالم، الذي يلاحق الحقائق ولا يبغي عنها بدلا، فيصوغ آراءه بثقة الباحث الذي فحص الوثائق، ومحّص المخطوطات، وقابل بين النسخ والدّلائل، فلذلك لا نستغرب الأحكام المطلقة التي أرسلها في كتابه كالمسلّمات، على غير ما هو معهودٌ في لغة النقاد والمشتغلين بالمجال الأدبي

من النسبية والتحفّظ، فالأدب بالنسبة للمؤرّخ وثيقة زاخرة بالمعلومات، أكثر من كونه نصًّا طافحاً بالجمال والشاعرية.

وللتفصيل أكثر في ملامح الخطاب النقدي لدى أبي القاسم سعد الله يمكننا أن نشير إلى بعض القضايا التي أوردها في (أشعار جزائرية)، ممّا يمكن اعتبارها المداخل الأساسية لعالم سعد الله النقدي:

أوّلاً–مركزية المؤلف:

تحتفي المناهج السياقية بالمؤلّف وتعتبره صاحب الفضل في العملية الإبداعية، فلا سبيل لمعرفة النص بعيداً عن عوامل إنشائه، وظروف كتابته، ولذلك كان المؤلّف –بالنسبة إليها– سبيلاً لفهم النص، والإحاطة بعوالمه، بخلاف البنوية التي نادت بموت المؤلّف، واعتبرت انشغال النقد به غير ذي جدوى. وقد جاءت أفكار سعد الله منسجمة مع النقد السياقي–التاريخي من خلال التركيز على استعادة الماضي، وبثّ الحياة في شخوصه، والترجمة للمبدعين بـ"تعاريف قصيرة تربط بين النص وصاحبه"[17]، لا فرق في ذلك بين مشهور ومغمور، ما دام الهدف هو الحفاظ على علاقة الإبداع بمبدعه، وهو ما سمح للقارئ بأخذ صورة متكاملة عن الحالة الأدبية في الجزائر خلال القرن الثاني عشر الهجري.

ثانياً–شاهدية الأدب:

إذا كان الأدب في نظر أرسطو محاكاة، وعند الواقعيين انعكاساً، فإنّه بالنسبة لأبي القاسم سعد الله شاهدٌ على التاريخ وعلى التحوّلات الجارية فيه، إنّه الدّليل الذي يُمكِّننا من إثبات عظمة مرحلة ما أو إخفاقاتها، وهو ما كان حافزاً للمؤلف كي ينشر ديوان (أشعار جزائرية) بوصفه شاهداً قوياً على مستوى الخطاب الأدبي في الجزائر، مثلما يقول في مقدّمته: "كل ذلك حملني على الرّجوع إلى هذه الأشعار ودراستها وتقديمها للقرّاء كشواهد جديدة عن رقيّ الأدب العربي في الجزائر العثمانية، وكأداة للباحثين والدّارسين ليستفيدوا منها في أعمالهم المستقبلية بدل بقائها مطمورة في دهاليز المكتبات"[18]، فوجود الأدب دليلٌ على وجود الحياة، والمستوى الفنيّ لهذا الأدب يعكس حتماً المستوى الثقافي والحضاري في الجزائر خلال الحقبة العثمانية.

ويتجاوز الأدب كونه شاهداً على مستوى الثقافة والإبداع إلى كونه شاهداً على الحياة أيضاً، وشاهداً على التاريخ، يستأنس به المؤرخون، ويرجع إليه الباحثون في مجال الأرشيف، ذلك

أنّه يؤرّخ للعلاقات السياسية، ويصوّر منظومة الحكم، وما يتصل بها من حرب وسلم، وتخلّف وازدهار، وقد وضّح ذلك سعد الله بقوله "وإذا كانت تلك هي الأهمية الأدبية للمخطوط، فإنّ له أهميّة تاريخية أيضاً واضحة. إنّ في المخطوط قصيدتين تتناولان العلاقات بين الجزائر وإسطانبول عندئذ، الأولى قصيدة محمد القوجيلي التي تقدّم بها إلى مفتي الدّولة العثمانية.. أمّا القصيدة السياسية الأخرى فهي قصيدة أحمد المانجلاتي التي كتبها في التعريف بالمفتي سعيد قدّورة لدى مفتي إسطانبول"[19]، وهو ما يعكس مستوى العلاقة بين الباب العالي والجزائر بوصفها إقليماً تابعاً له.

والأدب شاهدٌ على المجتمع؛ يقدّم لمحة عن الواقع، ويصوّر تفاعلاته، ويرصد مشكلاته، ويوثّق أفراحه، مجسّداً الواقع كما يراه بحدقة عينه وكما يتمثله بحدقة روحه، ويقدّم فائدة كبيرة للباحث عن الحقيقة، ويُشبِع فضول الطّامع في التعرّف على المجتمع الجزائري، وهو ما أومأ إليه سعد الله عندما قال: "ومن هذا المخطوط نفهم كثيراً من العلاقات العائلية والإنسانية، من ذلك المكانة العلمية والاجتماعية التي كانت تحظى بها أسرة ابن علي في الجزائر، هذه الأسرة [ذات الأصل التركي] التي اندمجت في المجتمع الجزائري العربي المسلم حتى أصبحت من أكثر الأسر دفاعاً عن القيم العربية..ونلمح من المخطوط أيضاً تحاسد العلماء ومنافساتهم؛ من ذلك شكوى ابن علي من خصومه في بعض قصائده، وتباغض القوجيلي وسعيد قدورة، وانتصار المانجلاتي لقدّورة عند نفيه، والتفاف علماء الجزائر حول العالم المغربي علي الأنصاري ومدحهم له بأشعار عديدة"[20]، ممّا يحوّل النص الأدبي إلى شاهد على العلاقات الاجتماعية والإنسانية.

ثالثاً–هامشية الأدب الشعبي:

يقف أبو القاسم سعد الله موقفاً حادًّا من الأدب الشعبي، ويعتبره نموذجاً سلبياً غير جدير بالدّراسة والاهتمام، ويرى بأنّ إصدار (أشعار جزائرية) هو ردٌّ على "التشدّق بالحديث عمّا يسمّى بالثقافة الشعبية التي يراد بها الكيد للثقافة العربية الإسلامية الرّاقية في الجزائر"[21]، وهو تكرارٌ لِما قرّره في تاريخ الجزائر الثقافي الذي اعتبر فيه الأدب الشعبي دليلاً على انحطاط الثقافة وانحدارها، قائلاً: "فهو من الناحية الجدلية المحضة ضد الثقافة ودليلٌ على انحطاطها"[22]. جازماً بأنّ الأدب الرّاقي لا يكون إلاّ فصيحاً، أمّا المكتوب بالعامية فهو وسيلة لضرب الثقافة العالية، وهذا الرّأي ينطوي على مبالغة كبيرة –في رأينا– لأنّ الثقافة الشعبية جزءٌ مهمّ من ثقافة الأمّة

وهويّتها، ولم تكن أبداً بديلاً عن اللغة العربية الفصحى، بل كانت إلى جانبها تعبّر عن وجدان الأمة، وعن وعي أفرادها وتطلّعاتهم، يقول المرحوم حسن فتح الباب "ونحن لا نتفق مع باحثنا الكبير فيما ذهب إليه"[23]، مستدلاً بشعراء الملحون الجزائريين الذين أثروا الساحة الأدبية وكانت لهم إلى جانب ذلك مواقف وطنية مشرّفة "فإذا استشهدنا بالجزائر أمدّنا التاريخ بكنز ثمين من القصيد الشعبي في هذا الميدان، ومن ذلك أشعار المناضل (محمد بلخير) رفيق البطل الثائر على الاستعمار الاستيطاني الفرنسي في القرن الماضي (الشيخ بوعمامة)، تلك الأشعار التي تغنى فيها ببطولات الشعب وزعيمه، وقصائد الشاعر (الأخضر بن خلوف) الذي صوّر فيها وقائع معركة مزغران التي انتصر فيها أبناء الوطن على الغزاة الإسبان"[24].

رابعاً–الموقف من التقليد:

بدأ أبو القاسم حياته كاتباً حداثياً، فقد أشرنا إلى أنّه أوّل من كتب قصيدة التفعيلة في الجزائر، كما كانت له إسهامات في مجلة الآداب اللبنانية المعروفة بتوجهاتها التحديثية، ولذلك ليس غريباً أن يكون ضدّ التقليد حتى بعد توجّهه نحو الكتابة التاريخية، فعند حديثه عن شعر الغزل والتشبيب في الأدب الجزائري القديم توقّف عند ظاهرة التقليد، معتبراً هذا التوجّه الشعري مخالفاً لتوجّهات المجتمع، ولا يعكس البتة تطوره الطبيعي، وإنما هو مجرّد محاكاة للشعر الأندلسي في مراحل ضعفه وتهتّكه، متسائلا "هل معنى ذلك أنّ مجتمع الجزائر عندئذ كان متهرئاً كالمجتمع الأندلسي؟ طبعا لا. ولكنّه التقليد، قاتله الله! فشعراؤنا لا يدخلون باب المدح أو الرّثاء أو غيرهما من الأغراض إلاّ من خلال الغزل والتشبيب ووصف الرياض"[25].

آليات القراءة النقدية عند سعد الله:

عندما يقف أبو القاسم سعد الله أمام النصّ وجهاً لوجه؛ فإنّه يتعامل معه بطريقتين، طريقة تقوم على النقد الانطباعي التأثريّ، وطريقة أخرى تقنية توثيقية:

أ–النقد الانطباعي التأثّري :

يتعامل أبو القاسم سعد الله مع النص الأدبي بعقلية المؤرّخ؛ فلا يكاد يلقي بالاً للعناصر الجمالية في النص، إلاّ ما خرج مخرج الموقف الانطباعي التأثّري، بإطلاق أحكام قيمية مجملة غير معلّلة، كقوله في شعر ابن علي وابن عمّار وابن ميمون: "وكان شعرهم في جملته يعبّر عن متانة ثقافة هؤلاء الشعراء وتمكنهم من البيان العربي والذوق الفني والثقافة الإسلامية الأدبية"[26]، ثمّ

يخص ابن علي ببعض الإطراء والثناء فيقول "ولا نعلم شاعراً في القرن 12 في المشرق أو في المغرب، بلغ مبلغ ابن علي في قوة النفس واتساع العارضة والحبكة الشعرية وطواعية المعاني للألفاظ ومواتاة الصور، ولو أنصف مؤرّخو الأدب شعر ابن علي لجعلوه في كتبهم المقررة، وأولوه العناية التي يستحقها لدى الجيل الحاضر في الجامعات والمدارس"[27]، وهذا الحكم فيه الكثير من الإطلاق والتعميم، يذكّرنا بالمحاولات النقدية الأولى في التراث الإسلامي، التي تجاوزها النقد الأدبي الحديث والمعاصر.

ب–النقد التقني التوثيقي:

ونعني به القراءة التي تتعامل مع النص الأدبي باعتباره مجموعة وثائق تستحق الحفظ والفحص والدّراسة، وهي الطريقة التي أتقنها أبو القاسم سعد الله ومهر فيها، فهي من صلب تخصصه العلمي الذي أنفق فيه معظم حياته، وقد جاءت هذا القراءة على النحو التالي:

1–الوصف التقني للنّص الأصلي:

فيعرّف سعد الله بالنصّ المخطوط من الوجهة الوثائقية، ويصفه للقارئ وصفاً دقيقاً، كأنّه يراه رأي العين، بأن يذكر أوله وآخره، مع التنصيص على الحذف الموجود فيه.. فيقول: "نلاحظ أن في المخطوط بياضاً مما يؤكد الاضطراب في الترقيم من جهة، ومن جهة أخرى يدلّ على نقص، لاسيما إذا جاء البياض إثر انقطاع في تسلسل حديث أو وسط أبيات من الشّعر، والبياض الذي لاحظناه ونبّهنا عليه موجود في صفحات الأصل المخطوط التالية: 82، 83، 112.."[28]، فالنص لدى أبي القاسم سعد الله وثيقة مهمّة جدًّا، يجدر بالباحث أن يتعامل معها بحذر شديد، وحرصٍ كبيرٍ، فهي التي توفّر المادة الأدبية، وتسمح للقارئ بالتعرّف على النصوص التي عفا عليها الزمن.

2–المقابلة والتصحيح:

لقد وجد سعد الله صعوبة في إخراج نصوص (أشعار جزائرية) بسبب عدم وجود نسخة خطية كاملة لها، ممّا اضطرّه إلى الاعتماد على المخطوطة الوحيدة المتوفّرة رغم البتر الواقع في أوّلها وفي آخرها، مع الاستعانة بالنبذة المطبوعة من رحلة ابن عمّار التي تضمنت بعض هذه الأشعار، لأنّ الاعتماد على نسخة واحدة بغير خط المؤلف تعتبر خيارًا غير محبّذ في علم تحقيق المخطوطات، ومع ذلك يقبل سعد الله على إخراج الأشعار خوفاً عليها من الضياع والاندثار،

فيقول: "ومهما كان الأمر فقد اعتمدنا على المخطوط واستعنا برحلة ابن عمّار، كما استعنا بما وجدناه لابن علي في غير المخطوط وغير الرّحلة من المصادر التي سنشير إليها"[29]، منتهجاً طريقة المقابلة بين المصادر، "لتدارك النقص أو لمقارنة النص"[30].

3-ترميم النص:

لقد واجه سعد الله صعوبات كبيرة في ترميم النص، وإخراجه على النحو الذي أراده المؤلف، وتمثلت هذه الصعوبات في مشكلتين عويصتين وهما؛ البتر في أول المخطوط وفي آخره، والترتيب المشوّش لبعض صفحات المخطوط. فكان حريصاً على استكمال الجزء المبتور من الأشعار بالرجوع إلى رحلة ابن عمار، ومن خلالها تمكّن من إعادة ترتيب أجزاء النصوص، مثلما صرّح بذلك "لم نحافظ على ترقيم المخطوط لأنّه يبدو لنا ترقيماً غير دقيق ولا يراعي تسلسل النصوص في المخطوط، والدّليل على ذلك أنّ بقية القصيدة الموجودة على صفحة 71 نجدها على صفحة 113 وما بعدها.. ولذلك وقع تحويرٌ في ترتيب المخطوط، فما كان آخره أصبح هو أوله في تحقيقنا، وما كان بداية له أصبح وسطاً في تحقيقنا، وما كان قريباً من الآخر بقي في مكانه"[31]، وهذا عملٌ فيه الكثير من المشقّة والمغامرة، بسبب الحاجة إلى مصادر أخرى إلى جانب نص المخطوط لإعادة بنائه بما يتفق مع الأصل أو يقترب منه، ولذلك اعتبر سعد الله أنّ الجهد الذي قام به قابلٌ للتحسين والتطوير إذا توفرت مصادر أخرى، وتحسّنت الظروف، فأطلق دعوة لاستكمال العمل الذي قام به فقال: "ولذلك لم نر بدًّا من الاكتفاء بما وجدنا في هذا المخطوط وما قابلناه به أو صححناه فيه من رحلة ابن عمار. ولعلّ الباحثين اللاحقين يواصلون مسيرتنا فيجمعون ويحققون ويصنفون"[32].

الخاتمة:

يعتبر أبو القاسم سعد الله شخصية علمية أكاديمية فريدة من نوعها في الجزائر، ليس بسبب تآليفه الكثيرة فقط، ولا بسبب عمق بحوثه وجديّتها، ولكن بسبب قدرته على تجاوز الحدود الفاصلة بين التخصصات، فقد استطاع أن يؤرّخ للثقافة الجزائرية بجميع عناصرها ومكوّناتها، الموسقى، والشعر، واللغة، والفقه، والطب، وحتى السّحر والشعوذة، ممّا ينمّ عن وعي كبيرٍ بأهمية العنصر الثقافي في بناء مجد الأمّة الجزائرية، وفي تجسيد مدى رقيّها وتحضّرها.

إنّ دخول أبي القاسم سعد الله البحث التاريخي بعقلية الأديب، وخوضه في قضايا الأدب والفن بصرامة المؤرّخ، خلق لنا حالة فريدة في الدراسة والتحليل، فوجدنا أنّنا أمام باحث–مدرسةٍ، ترك بصمة كبيرة في مجالي البحث التاريخي والنقد الأدبي. وهو ما استوقفنا في هذه الورقة؛ فحاولنا أن نتعرّف على منهجية سعد الله في التعامل مع النص الأدبي من خلال كتابه (أشعار جزائرية) الذي حقّق فيه نصوصاً من التراث.

لقد سمحت لنا (أشعار جزائرية) أن نقترب من عالم سعد الله النقدي، فاكتشفنا أنّه يعطي أهمية كبيرة للنص الأدبي باعتباره وثيقة تاريخية، تستحق التضحية والعناء من أجل إخراجها من دهاليز النسيان، بتصحيحها ومقابلتها وترميمها وتحقيقها، لتكون بين أيدي القراء والباحثين، ولذلك كان عمل سعد الله مع النصوص الأدبية التراثية تعاملا تقنياً فنياً شبيهاً بعمل خبراء المتاحف، الذين يحرصون على تجهيز القطع الأثرية وإعادتها إلى الحياة، لتعرض أخيراً أمام الجمهور، ويستفيد منه الدّارسون فيما بعد في أبحاثهم. فقد كان لا يعبأ كثيراً بالمناهج الجمالية المحايثة ذات الخلفية اللسانية.

ومع ذلك تمكّنا من معرفة المداخل الأساسية لعالم سعد الله النقدي؛ التي تتقاطع مع المناهج السياقية، وتستفيد من روحية المنهج التاريخي، على غرار مركزية المؤلّف، وشاهدية الأدب، ورفض التقليد. هذا وأعترف بأنّ هذه الأوراق تظل قاصرة عن الإحاطة بجهود أبي القاسم سعد الله النقدية، نظراً لغزارة إنتاجه، وثراء كتاباته، فما قدّمته يصلح أن يكون مدخلاً لتجربة سعد الله النقدية، التي لم تحظ بعد بالدّراسة الوافية التي تستحق.

هوامش:

[1] أحمد دوغان، في الأدب الجزائري الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996، ص361 وما بعدها

[2] أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ص52-53.

[3] محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006، ط2، ص151.

[4] تجارب في الأدب والرحلة ص167.

[5] أحمد يوسف، يتم النص والجينيالوجيا الضائعة، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002، ط1 ص62.

[6] عمار بن زايد، النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص123.

[7] حبيب مونسي، نقد النقد المنجز العربي في النقد الأدبي– دراسة في المناهج، دار الأديب، وهران–الجزائر ص56.

[8] السابق ص56–57.

[9] الاقتباس مأخوذ من السابق ص58

[10] السّابق ص58.

[11] ديفيد بُشبِندر، نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ص121.

[12] السابق ص124 وما بعدها

[13] عبد المالك مرتاض، الأدب والعلوم الإنسانية، مجلة بونة للبحوث والدّراسات، الجزائر، العدد الأول، مارس 2004، ص43.

[14] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ، 1981م (247/2)

[15] السابق (219/2)

[16] السابق (295/2)

[17] أشعار جزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988م، ص21.

[18] أشعار جزائرية ص09.

[19] السابق ص17–18.

[20] السابق ص19

[21] السابق ص09.

[22] تاريخ الجزائر الثقافي (324/2).

[23] حسن فتح الباب، أشعار جزائرية، مجلة عالم الكتاب، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1990م، ص141.

[24] حسن فتح الباب، المرجع السابق ص141.

[25] أشعار جزائرية ص20.

[26] السابق ص16

[27] السابق ص16–17.

[28] السابق ص12–13

[29] السابق ص10.

[30] السابق ص09.

[31] السابق ص11.

[32] السابق ص14.